الثورة السبت 12 محرم 1432 هـ الموافق 18 ديسمبر 2010م العدد (16838)

مشاهدات وانطباعات
يكتبها/ شائف الحسيني

الجزء الثالث
الحلقة السابعة

ثلاثون يوماً في الصين:

تأملات في سلوكيات الشارع الصيني

الشرطة والمواطن.. علاقة احترام يؤطرها القانون

□ جانب من المتسوقين في احد أسواق «بيجين»

□ استهوتنا سياحة التجوال في الشوارع العامة ذات الكثافة السكانية، للتأمل في السلوك العام في الشارع، باعتباره يمثل وجهاً من أوجه الحقيقة في سلوك المواطن والدولة في أي بلد في العالم، سواءً كان بلداً متخلفاً أم متطوراً، فثقافة المجتمعات ليست رهينة الكتب - فقط - وإنما تتبدى في السلوك العام، فذات مساء مررنا بأحد الشوارع الفرعية التي تزدحم في هذا الوقت - التاسعة مساءً - بالمشاة، ولا أعلم اسم هذا الشارع الذي يوجد في حي «سانليتون» وسط مدينة «بيجين»، ويزدحم بعشرات البائعين، سواءً جائلين أو على عربات صغيرة أو أصحاب بسط مفروشة في الأرض، إضافة إلى وجود دكاكين صغيرة ومتوسطة في الشارع تباع فيها متطلبات عديدة

الثقافة الاخلاقية تمنع أي شخص من الاعتداء على الآخر أو التعرض لكرامته الإنسانية

كما توجد مطاعم وبوفيات للمشروبات يقوم أصحابها بإخراج الكراسي إلى حواف الأرصفة، فيكتظ الشارع بكل ذلك، وتتعثر الحركة فيه، لأن هذا الخليط المخالف للنظام يعيق حركة المشاة إلى حد كبير يستدعي تدخل المعنيين في الأجهزة الرسمية، فماذا رأيت هنا؟

الذي رأيته حقيقة في طبيعة العلاقة بين المواطن والشرطي لم يسبق أن رأيته في أي بلد من بلدان العالم الثالث التي زرتها، وهي كثيرة، فقد حضرت الشرطة إلى هذا الشارع لترتيب الأوضاع فيه وإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي، فالمظهر المعتاد الذي ألفناه دائماً في بعض البلدان الديكتاتورية ذات الأنظمة الشمولية أن يبدو الشرطي أمام المواطن متغطرساً بدرجة عالية، ويلبسه الغرور كالزي على الجسم، سواءً كان في الشارع أم في مقرات الشرطة، فيصبح المواطن في نظره ضعيفاً وتحت طوعه، هذا طبعاً في الأحوال العادية، أما في حال حدوث مشكلة يكلّف بمواجهتها، فإنه يزداد غطرسةً وجبروتاً، وقد رأينا في الحياة مثل هذا السلوك الفج على أرصفة الطرقات في المدن وفي أقسام الشرطة، وشاهدنا على شاشات التلفاز مواقف كثيرة محزنة وبائسة فيها عدوان صارخ على أناس لأسباب لا تستدعي ذلك العنف، حيث تنزل على رؤوسهم وظهورهم الهراوات والضرب والصفعات بشكل وحشي، وبكل الوسائل المتاحة، أحياناً، في الساحات العامة أمام الملأ دون أن يعتري الشرطي أي إحساس بالخجل أو الحياء، وتحدث أشد حالات القسوة في أحيان كثيرة في الغرف المغلقة، ويعد أفضل مَنْ يكلّف بالمهمة هو الذي يظهر أمام آمريه بمزيد من العنف واستخدام أساليب ووسائل القوة أكثر من زملائه، ويصبح القمع مجالاً للمباهاة والتفاخر، وهو ما يكشف عن غياب الضمير واستبداله بالنزعة الحيوانية في أبشع صورها.

حالات كثيرة في هذه البلدان لا تحترم فيها آدمية الإنسان، ولا تقدر فيها المسؤولية القانونية والأخلاقية الملقاة على عاتق هذه الأجهزة، لتسمو العلاقة بين المواطن والدولة إلى المستوى الإنساني، بحيث يصبح الجميع شركاء في المواطنة تحت مظلة القانون، وليس بواسطة العنف الذي يؤدي إلى أن يتحول المواطن إلى شخص تسيطر عليه روح الحقد والانتقام، وبالتالي تستشري الكراهية في النفوس بين الحاكم والمحكوم، وتضعف الروح الوطنية ويتزعزع الإحساس بالتضحية من أجل الوطن، لأن هذه القيم قد انكسرت بإهدار كرامة هذا المواطن على يد دولته، فتحل بالأوطان الهزائم والانكسارات على كافة الجبهات دون أية مبالاة، وتسود ثقافة الاستبداد جوانب الحياة المختلفة، ومع الزمن يستمرؤها الناس بسبب تكررها في الحياة العامة، حتى يصير أي شيء من هذا القبيل يحدث أمام عيونهم أمراً مألوفاً وغير معيب، ويصبح العنف بذلك عملة متداولة يمكن استخدامها من قبل أي حاكم وفي أي زمان ومكان، وحتى من قبل أي شخص آخر يمتلك نفوذاً دون حساب أو عقاب، بينما يكتفي الرأي العام بالفرجة، وكأن ذلك جزءاً من طبيعة الحياة التي قوامها الاستبداد وليس الحرية، وهكذا دواليك.

راقبت خلال فترة وجودي في هذا البلد تصرفات الشرطة الصينية في الشارع، فلم أجد أي شيء يجعل الشرطي في اشتباك مع المواطنين بأساليب فجة، ولم ألمس أي احتكاك من هذا النوع الموسوم بالشدة والعنف، فكل الأمور تسير بشكل طبيعي، ولا أحد يتصرف في الشارع بما يجرح المشاعر أو يؤدي إلى تدخل الشرطة مستخدمة العنف، بل وسألت مقيمين في الصين منذ سنوات مضت – يمنيين وعرباً – في أي وقت يحصل العنف كما نراه في ساحة البلدان الديكتاتورية المتخلفة، فأجابوا بأن حرمة المواطن هنا في نفسه وحقه شيء مقدس لا يمس، فالحبس ومصادرة الممتلكات لا تحدث إلا عبر إجراءات إدارية وقانونية معقدة، فالمسألة ليست مطلقة بيد أحد من السلطة التنفيذية – حسب ما أخبروني به – والصينيون لديهم ثقافة أخلاقية وقانونية تمنع كل شخص من الاعتداء على أي شخص آخر أو إهانته أو التعرض لكرامته الإنسانية، مهما كانت الأحوال والظروف، فأي عمل من هذا القبيل يعد منافياً لأخلاقهم وقوانينهم، وبالتالي فإن الطرفين : الشرطي والمواطن، يحافظ كلٌّ منهما على قدر كبير من الاحترام للآخر، تحت مبدأ سائد في تراثهم، كما قال حكيمهم القديم كونفوشيوس : «عامل الناس كما تريد أن يعاملوك».

لم أرَ مظاهر للسلاح في أي مكان زرته توحي بأن شيئاً ما قد حدث، أو أنه متوقع الحدوث، والمرة الوحيدة التي رأيت فيها مشهداً من هذا النوع كان وقوف سيارة مصفحة أمام أحد البنوك، وأفراداً ينزلون منها نقوداً لإدخالها إلى البنك وبجوار العربة أربعة عساكر مزودين بعتادهم وأسلحتهم الأوتوماتيكية مصوّبة نحو الأرض، كل اثنين منهم في جانب، وهذا الإجراء لا يوحي بشيوع السطو على الأموال، فمثل هذه الحوادث لا تحصل أبداً في الصين، وإنما هو إجراء احترازي يأتي في إطار تنفيذ القانون.

وأظن أن للعامل الثقافي المتوارث لديهم أثراً مهماً في رسم هذا النمط من السلوك الذي ينأى بكل فرد من الاعتداء على الآخرين، بل إن جل موروثهم الحضاري يحثهم على أن يتحلوا بالأخلاق في ما بينهم ومع الآخرين، ويحثهم على احترام الحاكم الذي يعد لازماً كاحترام كبير الأسرة، هذا هو سلوكهم وثقافتهم التي أدت إلى التعايش والانسجام، وقلل من الاضطرابات في هذه البلاد واسعة المساحة كثيرة السكان.

قد تظهر السلطة في الصين شديدة وعنيفة في بعض الحالات، وهي في الأخير مفهوم عام يعني ببساطة التسلط، لكن الشدة هنا تنصب على الجوانب الأمنية ذات الأبعاد الخطيرة التي تخل بالأمن العام، وتهدد استقرار الدولة والمجتمع، وما عدا ذلك فالأمور تسير بصورة اعتيادية يسودها القانون، وتحترم فيها كرامة المواطن.

أعود إلى تناول ما شاهدته في ذلك الشارع الصغير المزدحم بسبب المخالفات التي تحدث فيه، فقد وقفت سيارة الشرطة وهي تطلق أضواءها الملونة كعلامة مميزة للشرطة في جانب الشارع، ونزل منها خمسة أفراد بينهم ضابط وقفوا جميعهم بجانب السيارة بترتيب منضبط، وكأنهم كتيبة في الميدان، وكلّف أحدهم بالذهاب نحو المخالفين الذين يبيعون في الشارع ويعيقون حركة المرور، لتنبيههم برفع بضائعهم، وكذلك إشعار أصحاب المطاعم برفع الكراسي من الأرصفة، ثم عاد هذا الشرطي المكلّف وانضم إلى المجموعة بعد أداء المهمة الموكلة إليه، وظلت المجموعة واقفة على بُعد أمتار تراقب مدى الاستجابة للتعليمات، بينما أخذ البائعون يتباطأون في تنفيذها، على أمل أن تكتفي الشرطة بذلك، ثم تغادر المكان، ليستمر البائعون في وضعيتهم الحالية، لكن الجنود ظلوا على ما هم عليه واقفين بثبات بجانب السيارة، ثم بدأوا في تنفيذ الخطوة التالية، والتي تتمثل في اعتراض كل راغب في الشراء لإبلاغه بأن هؤلاء البائعين مخالفون، فيغادر الزبون دون أن يشتري أي شيء منهم، وهكذا وأمام هذا الإصرار من الشرطة لا يعود أمام هؤلاء البائعين سوى المغادرة، وهذا ما حدث فعلاً، ولكن بعد عناء شديد وصبر جميل.

عاد النظام إلى الشارع وغادر أفراد الشرطة دون عراك، وحقيقة لم أكن أعلم ما هي الإجراءات العقابية التي تتخذ في حال التمرد والرفض المطلق للتعليمات، لكنني أجزم أن العنف لم يكن ليستخدم للأسباب سالفة الذكر، لطبيعة العلاقة بين أفراد الشرطة والمواطنين المبنية على قدر من الاحترام المتبادل، ومن طبائع الصينيين عموماً ألا يضعوا أنفسهم في مواقف تحرجهم وتعرضهم للإهانة والاحتقار، فهذا هو غالباً ما يتجنبه كل فرد منهم تقريباً، ورغم الإجراءات الأمنية المشددة في المنافذ وعلى المواقع الحساسة، إلا أنني لم ألاحظ أي شيء يتسم بالعنف والقسوة خلال وجودي في الصين.

والملاحظ في مثل هذه الحالة التي حصلت هنا على قارعة الطريق أن الناس في الشارع يسيرون في طريقهم دون أن يتجمهروا أو يحشروا أنفسهم في ما لا يعنيهم، ولا يعيرون ما يحدث أي اهتمام، وفي الأخير فإن كل الأمور في هذا الشارع الفرعي الصغير عادت إلى طبيعتها وغادر أفراد الشرطة المكان دون أي احتكاك مع أولئك البائعين المخالفين.

ثقافة التعايش والانسجام قللت من الاضطرابات والفوضى

اظهار الصرامة والشدة لصالح ضبط القانون وحماية الأمن العام

□ أحد الشوارع في الاحياء الشعبية «بيجين»